فاعلية السياق القرآني في تحديد مقاصد التعقيب المتكرر في سورة الرحمن

The effectiveness of the Qur'anic context in determining the purposes of repeated commentary in Sura al-Rahman

صورية دحماني*

د. سليمان بوراس♣

تاريخ الإرسال: 2019/09/19	تاريخ القبول:2019/10/09	تاريخ النشر:.2019/12/25

الملخص:

يروم البحث إبراز الدور الجوهري للسياق في الكشف عن مقاصد التعقيب القرآني, بوصفه نمطا تعبيريا يخص الخطاب القرآني, يجسد الحكم الإلهي على قضية من قضايا السورة, و يرتبط بها ارتباطا تفاعليا متناسقا مع مقاصدها, وهو ثلاثة أنواع: تعقيب غالب يخص التعقيبات الغالبة على السورة, وتعقيب متنوع لا يلزم تركيبا محددا في السورة, وتعقيب متكرر يلزم تركيبا واحدا ويتكرر في السورة كاملة, كما هو الشأن في سورة الرحمن؛ إذ تكرر إحدى وثلاثين مرة قوله تعالى: ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ سورة الرحمن. مما يستلزم الاستعانة بالسياق للوصول إلى مقاصده.

الكلمات المفتاحية: السياق, التعقيب القرآني, المقاصد, الخطاب القرآني، سورة الرحمان، التكرار

Abstract:

The research aims to highlight the essential role of the context in revealing the purposes of the Qur'anic commentary, as an expressionist pattern related to the Qur'anic discourse, embodies the divine judgment on one of the issues of surah, and is linked interactively in harmony with its purposes, which is three types: the predominant commentary

المؤلف المرسل: بوراس سليمان slimanebou@gmail.com

* جامعة المسيلة souria.dahmani@gmail.com

♣ جامعة المسيلة slimanebou@gmail.com

concerning the dominant comments on the surah, A varied comment does not require a specific composition, and a repeated comment that requires one composition and is repeated in the whole surah, as in Surat al-Rahman, as he repeats thirty-one times the saying: "By what authority do you have to lie" This entails using context to reach its purposes.

1.أهمية السياق في الدراسات التداولية:

تعنى التداولية بدراسة اللغة في سياقاتها التواصلية وقت الاستعمال, فهي لا تكتفي بالتركيب اللغوي والدلالي, بل تعنى أيضا بالسياق الخارجي للخطاب بما فيه أحوال المتخاطبين وظروفهم وبالإطار الزماكاني للتخاطب, وتتخذه دعامة في الكشف عن مغاليق النصوص والخطابات, فقد "حرصت اللسانيات البنيوية على المقاربة العلمية لمستويات اللغة المختلفة, مما جعلها تصطدم على المستوى الدلالي بمجموعة من الإكراهات المتعلقة بتفسير وظائف الموجهات المرتبطة بالمتحاورين كضمائر المتكلم والمخاطب (أنا, أنت) وظروف الزمان والمكان (الآن, هنا, هناك...) وهي الموجهات التي تحيل على التلفظ ومكوناته "[2] أي إن القبض على دلالات الخطاب يحتاج إلى إحاطة بالسياق الخارجي, ولا ينحصر فقط في البنية الداخلية للخطاب؛ فالتحليل التداولي يرتكز على السياق بوصفه الإطار العام للتواصل والتفاعل بين المتخاطبين, إذ يسهم في تشكيل الخطاب وفي فهمه.

2. دور السياق في فهم الخطاب القرآني:

إن كثرة الدراسات القرآنية دليل على أهمية القرآن في حياة المسلمين, وعلى إعجازه الذي قيض له الكثير من الباحثين أقلامهم إعجابا بأسلوب القرآن المتميز المتنزه عن كلام البشر, فالقرآن الكريم رحب المدى لا تنتهي أسراره, ومعين لا ينضب, ينهل منه الباحثون والدارسون, فقد كان سببا في نشوء الكثير من الدراسات والعلوم العربية مثل علمي البلاغة والنحو, وعلم التفسير, وعلم الفقه.

وما يحسن التنويه به في هذا الشأن أن مختلف الدراسات القرآنية من تفسير وتأويل والتي اتخذت من النص القرآني موضوعا للبحث والدراسة, تعد النواة الأولى لتحليل الخطاب القرآني, وإن اختلفت الآليات والمناهج البحثية، والتداولية من المناهج النقدية الحديثة التي يمكن استثمارها في مقاربة الخطاب القرآني لكونها ترتكز على

السياق الذي كان محط اهتمام الدراسات القرآنية التراثية وإن اختلفت المصطلحات, وما يثبت ذلك اهتمام علمائنا الأجلاء بالسياق كأسباب النزول والمكي والمدني, تفسير القرآن بالقرآن ...إلخ في تعاملهم مع الخطاب القرآني, " فأصحاب المدونات التفسيرية كانوا على وعي تام بأن فهم الخطاب لا يتم باستحضار المستويات اللغوية الشكلية؛ فالأصوات والصرف والتركيب لا تفيد المعنى بالضرورة, بل لابد من استحضار السياق اللغوي والمقام- السياق غير اللغوي- أي أسباب النزول وملابسات النزول باعتبارها عوامل أساسية من عوامل تحديد المعنى"[3] وهنا يمكن تصنيف السياق إلى صنفين: الأول سياق لغوي داخلي يتمحور حول السابق واللاحق من الكلام, والثاني: سياق خارجي يشمل ظروف الخارجية للخطاب من زمان ومكان التخاطب و أحوال المتخاطبين وظروفهم، يقتضي فهم الخطاب مراعاة السياق بنوعيه الداخلي والخارجي إذ " يكمل أحدهما الآخر, فلا يمكن الاستغناء عن أحدهما في فهم معنى النص, فالنص ليس نسيجا لغويا يحمل خصائص جمالية فقط, بل إن اللغة ممتزجة بفكر صاحبها لا تنفك عنه "[4] ففي كثير من الأنماط التواصلية لا يبوح ظاهر الخطاب بالمقاصد الحقيقية, مما يحتم على المتلقي العودة إلى السياق المقامي

هذا ما يؤكد أن " قرينة السياق تمتد على مساحة واسعة من الركائز تبدأ باللغة من حيث مبانيها وعلاقاتها النحوية وتشتمل هذه القرينة على العناصر غير اللغوية مثل ظروف المتكلم والمخاطب, وعلى القرينة الاجتماعية من تقاليد وعادات مما يسهل قرينة السياق كبرى القرائن, فالمقال والمقام هما بمثابة قطبين يكتنفان المعنى بحيث لا يتضح إلا في ضوء الاستئناس بقرائنهما"[5]؛ لأن إهمال السياق قد يؤدي إلى فهم مغلوط لمقاصد المتكلم, فكم من خطاب ظاهره المدح وباطنه السخرية, وكم من قصة ظاهرها التسلية وباطنها مقاصد سياسية أو اجتماعية... إلخ

- **دور السياق النصي في فهم الخطاب القرآني:**

السياق النصي القرآني على اختلاف مستوياته؛ من سياق عام للقرآن أو سياق السورة أو سياق الآية, يساعد في البحث عن مقاصد سورة أو آية, هذا ما عرف في

تراثنا بتفسير القرآن بالقرآن" فقد وضع قاعدة في أصول التفسير بضرورة العودة إلى القرآن الكريم نفسه لمعرفة تفسير آية ما, فما أجمل في مكان ما فصل في مكان آخر, وما أطلق في سورة قيد في سورة أخرى" [6].

ومن الأمثلة التي نستدل بها " قوله تعالى في سورة النحل: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ النحل 118, فقد أفادت الآية الكريمة أن ما حرم على اليهود قد قصه الله سبحانه وتعالى على نبيه, وبالرجوع إلى الآية التي ورد فيها ذكر المحرمات عليهم, نجد أن آية الأنعام قد فصلت هذا الإجمال وأزالت ذلك الإبهام في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾الأنعام 146 "[7]

- **دور السياق الخارجي في فهم الخطاب القرآني:**

إن تحليل الخطاب القرآني لا يقتصر على النص وحده, بل يحتاج إلى إحاطة وافية بكل ما يتعلق بالسورة أو الآية, مما يستلزم البحث في كل المعينات السياقية التي ترشده إلى المقاصد وتجنبه الوقوع في مزالق تحرف الخطاب عن غايته، ومن المعينات السياقية معرفة المكي والمدني , "فالمكي ما نزل قبل الهجرة و المدني ما نزل بعدها" [8]؛ وهذا التقسيم الزماني المكاني هو من أشهر التقسيمات التي حددها البحثين في ضبط المكي والمدني, إضافة إلى هذا الضابط: " أن ما كان فيه خطاب: ﴿يا أيها الناس﴾ فإنه مكي, وما كان بخطاب ﴿يا أيها الذين آمنوا ﴾ وفيه حديث عن المنافقين فإنه مدني" [9] "وبهذا يختلف الخطاب باختلاف المخاطبين " فمن المعلوم أن السور المكية أكدت على أربعة أمور: الإيمان بالله وحده, والإيمان بالبعث بعد الموت, والإيمان بالرسالات السماوية, والدعوة إلى أمهات الأخلاق, فإذا كانت السور المكية فلا يخلو الأمر من أن يكون من أهدافها الأساسية هذه الأسس الأربعة مجتمعة أو متفرقة"[10] والملاحظ لمواضيع الخطاب المكي, يجدها مناسبة لطبيعة المخاطبين, فأهل مكة عرفوا بكفرهم وتكذيبهم للرسول

صلى الله عليه وسلم، أما " السور المدنية بالإضافة إلى تقرير ما سبق, فقد استهدفت المجتمع الإسلامي على أسس من الإيمان والطاعة والتشريعات التفصيلية في شؤون الحياة, كما استهدفت حماية المجتمع الإسلامي من الأخطار الداخلية والخارجية, يكشف خطط المتآمرين الحاقدين الساعين في الأرض بالفساد من اليهود و المنافقين, فلا تخلو سورة مدنية من قضية البناء أو الصيانة والحماية"[11] واختلاف المكان حتما يؤدي إلى اختلاف الموضوع والمقاصد؛ فالمدينة تختلف عن مكة في نواح عديدة جغرافيا واجتماعيا و دينيا....إلخ، واستنادا على ما سلف, فمعرفة المكي والمدني يعين على فهم الخطاب من حيث مخاطبوه وقضاياه , فمن"فوائد معرفة ذلك, العلم بالمتأخر, فيكون ناسخا أو مخصصا"[12] فمعلوم أن المدني متأخر وهو بالتالي ناسخ لبعض أحكام المكي, كما أن الإحاطة بالمكي والمدني تعين على فهم تاريخ التشريع الإسلامي وكل ما يتعلق بالعقيدة، ومن المعينات السياقية معرفة أسباب النزول التي تساعد في معرفة المخاطب وفحوى الخطاب, ونستدل هنا بسورة عبس, " التي نزلت في ابن أم مكتوم الذي عبس وأعرض عنه الرسول عليه الصلاة والسلام, و كان يكرمه ويقول إذا رآه : مرحبا بمن عاتبني فيه ربي"[13]، ومن المعينات السياقية التي تعين على فهم الخطاب القرآني السنة النبوية الشريفة, وفي هذا الشأن يقول صاحب البرهان في علوم القرآن: " اعلم أن القرآن والحديث أبدا متعاضدان على استيفاء الحق وإخراجه من مدارج الحكمة؛ حتى إن كل واحد منهما يخصص عموم الآخر, ويبين إجماله. ثم منه ما هو ظاهر, ومنه ما يغمض, وقد اعتنى بإفراد ذلك بالتصنيف: الإمام أبو الحكم ابن برجان في كتابه المسمى بالإرشاد وقال : ما قال النبي صلى الله عليه وسلم من شيء فهو من القرآن, وفيه أصله, قرب أو بعد, فهمه من فهمه, قال تعلى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ الأنعام 38؛ ألا تسمع قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الرجم: لأقضين بينكما بكتاب الله, وليس في نص كتاب الله الرجم. وقد أقسم النبي صلى الله عليه وسلم أن يحكم بينهما بكتاب الله, ولكن الرجم فيه تعريض مجمل في قوله تعالى: ﴿ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٨ ﴾ النور 8, وأما تعين الرجم من عموم ذكر العذاب, وتفسير هذا

المجمل, فهو مبين بحكم الرسول وبأمره؛ وموجود في عموم قوله: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ سورة الحشر 7 , وقوله : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾ سورة النساء 80 "[14]

وبهذا يتبين لنا بأن الأخذ بالسنة الشريفة, يعد إضاءة سياقية مهمة لا يمكن تجاهلها, في تفسير القرآن الكريم, كما أن الأخذ بروايات الصحابة يعين في تحليل الخطاب القرآني, " و قد أخرج ابن جرير عن مسروق قال: قال عبد الله بن مسعود: والذي لا إله إلا هو, ما نزلت آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم في من نزلت, وأين نزلت؛ ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته, وقال أيضا: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يتجاوزهن حتى يعلم معانيهن, والعمل بهن"[15]

إجمالا يمكن القول: الإحاطة بالسياق بنوعيه النصي والخارجي يسهل فهم الخطاب ومعرفة خلفياته, وقد كان علماؤنا القدامى من مفسرين وأصوليين على وعي تام بفائدته الجمة في فهم كتاب الله, فاستحدثوا علوما تساعدهم على ذلك من قبيل: علم الناسخ والمنسوخ, وأساب النزول, والمكي والمدني...إلخ.

3. في ماهية التعقيب القرآني و أنواعه:

من الأساليب التي تفرد بها الخطاب القرآني أسلوب التعقيب الذي شغل حيزا كبيرا في القرآن الكريم وهو دراسة من الدراسات الحديثة, يعد الدكتور محمد كريم الكواز من الذين أفردوا له دراسة في كتاب موسوم ب: أسلوب التعقيب في القرآن الكريم, حدد فيه مفهوم التعقيب وخصائصه وأنواعه وتركيبه.

- **التعقيب لغة:** جاء في لسان العرب في مادة عقب:" عقب القدم مؤخرها[...] سافر عقب رمضان أي في آخره, وقد بقيت منه بقية [...] وعقب فلان في الصلاة تعقيبا إذا صلى, فأقام في موضعه ينتظر صلاة أخرى وفي الحديث: من عقب في صلاة, فهو في الصلاة, أي

في مصلاه بعدما يفرغ من الصلاة, ويقال صلى القوم وعقب فلان, وفي الحديث التعقيب في المساجد انتظار الصلوات بعد الصلوات"[16]

- **التعقيب القرآني:** أسلوب اختص به القرآن الكريم و شغل مساحة كبيرة في سوره, عرفه محمد كريم الكواز بقوله: "التعقيب نمط تعبيري خاص بالقرآن, يجسم الحكم الإلهي على قضية من القضايا المطروحة في السورة, وله ارتباط متفاعل مع القضية؛ لهذا تشكل معها على هيئات مختلفة, اقتضت بالضرورة إنتاج دلالات مختلفة تنبني القضية وتعقيبها ضمن البناء العام للسورة, بما يحدد ملامح مستقلة لكل سورة"[17]، والمتمعن في التعريفين المعجمي والاصطلاحي للتعقيب يلاحظ تقاربا في المعنى, فالتعقيب في اللغة يوحي بترابط وثيق بين أمرين, كما في المعنى الاصطلاحي حيث يرتبط التعقيب بالقضية التي يعالجها ويأتي في المرتبة الثانية.

- **خصائص التعقيب القرآني:** انطلاقا من تعريف محمد كريم الكواز تتضح لنا جملة من الخصائص المميزة للتعقيب القرآني, أهمها:

- ✓ التعقيب نمط تعبيري اختص به القرآن الكريم, يأتي بعد قضية قرآنية
- ✓ التعقيب كلام الله ولا يعد كلام الأنبياء أو غيرهم في النص القرآني تعقيبا, كقول الملائكة: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ البقرة 32 فقول الملائكة: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ لا يعد تعقيبا؛ لأنه غير صادر من الله عز وجل.
- ✓ التعقيب القرآني ليس كلاما زائدا لا دور له في المعنى, بل يتفاعل مع كل قضية بتناسق جميل دقيق, لنتأمل قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ البقرة 1-5 جاء التعقيب إشاريا في قوله: أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ وهو كلام صادر من الله تعالى مرتبط بقضية تسبقه, يجسد بدقة حكما عليها, فالمتقون المتصفون بالصفات المذكورة في الآيات, يستحقون الفلاح ويستحقون أفضل الجزاء,

فأعمالهم سابقة الذكر قادتهم إلى طريق الهداية والفلاح، والملاحظ لهذا التعقيب يتبين له أنه حكم صادر من الله, نتيجة لقضية محددة, يتفاعل دلاليا معها وليس بزائد للتوكيد,

- ✓ التعقيب لا يلزم تركيبا محددا ذا دلالات مختلفة, لكونه مرتبطا بقضايا قرآنية متنوعة.

- **أنواع التعقيب القرآني:**

صنف محمد كريم الكواز في مؤلفه أسلوب التعقيب في القرآن الكريم التعقيب إلى ثلاثة أنواع بحسب وروده في السور:

- **التعقيب المتنوع:** وهو التعقيب الذي لا يلزم تركيبا لغويا وبلاغيا محددا, يأتي في السورة الواحدة بأنماط تعبيرية مختلفة, مثل التعقيبات الواردة في سورة الواقعة.
- **التعقيب الغالب:** وهو التعقيب الذي يغلب تكراره في سورة واحدة, بصفة بارزة أكثر من التعقيبات الأخرى, مثل سورة الصافات تكرر فيها التعقيب الغالب ﴿ **إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١١١ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١١٢**﴾
- **التعقيب المتكرر:** وهو التعقيب الذي يلزم تركيبا واحدا في السورة؛ إذ تكرر قوله تعالى:﴿ **فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ إحدى وثلاثين مرة بعد قضايا متنوعة بانسجام عجيب معها, وبتناغم صوتي بديع يسترعي الأسماع.

4. مقاصد التعقيب المتكرر في سورة الرحمن:

المتدبر لسورة الرحمن يشد انتباهه جمالية التكرار فيها, جمالية فريدة تريح النفس وتستثير العقل, فمن جمال السورة تكرر تعقيب واحد والقضايا شتى, وهنا تجلت الحاجة للسياق في الوصول إلى مقاصد التعقيب في هذه السورة التي افتتحت باسم من أسماء الجلالة الرحمن وقد, جاء في تفسير ابن كثير في مكية السورة ":": حدثنا يحي بن إسحاق, حدثنا ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة عن أسماء بنت بكر قالت: سمعت رسول الله وهو يقرأ وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يستمعون: ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾"[18]، ولعل من أبرز قضاياها نعم المولى التي لا تعد ولا تحصى, قد

انسجمت كل قضايا السورة انسجاما جميلا مع تكرار قوله: ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ.** هذا التعقيب الذي ارتبط باسم السورة التي أُفتتحت " باسمه الرحمن الدال على سعة رحمته, وعموم إحسانه, وجزيل بره, وواسع فضله, ثم ذكر ما يدل على رحمته و أثرها الذي أوصله الله إلى عباده من النعم الدينية والدنيوية والأخروية وبعد كل جنس ونوع من نعمه, ينبه الثقلين لشكره, فيقول : فبأي آلاء ربكما تكذبان" [19] والتنبيه بالاستفهام زاد الخطاب قوة وجمالا؛ إذ يحرك العقول للتدبر النعم ويستثير المشاعر, فنحمد الله على نعمه, ونشعر بالندم على تقصيرنا ونسيان نعم الله، وقد جاء التعقيب في الآية الكريمة بصيغة الاستفهام الذي يصنف ضمن الأساليب الإنشائية الطلبية من منظور بلاغي , وأداة الاستفهام أي في الآية الكريمة" للاستفهام الإنكاري التقريعي التوبيخي, وقيل التقرير" , و" والفاء للترتيب الإنكار والتوبيخ على ما فضل من فنون النعماء, وصنوف الآلاء الموجبة للإيمان والشكر حتما والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية الكلية والتربية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد التنكير, وتشديد التوبيخ, ومعنى تكذيبهم بآلائه تعالى, كفرهم بها, إما بإنكار كونه نعمة في نفسه, كتعليم القرآن, وما يستند إليه من النعم الدينية"[20], ومن هذا المنطلق, يتضح أن الاستفهام خرج لغرض الإنكار و التقريع, والآية الكريمة من منظور تداولي يمكن عدها فعلا كلاميا غير مباشر, يتحدد مقصده في ضوء السياق.

ولأن هذا البحث دراسة تداولية لسورة الرحمن, فمن المفيد الإشارة لنظرية الأفعال الكلامية التي تعد من أهم المباحث التداولية, لأنها تعبر عن معنى وظيفي جديد للغة, يتمثل في قدرة أفعال اللغة على إنجاز تأثيرات في الواقع, وبهذا التصور تتجاوز النظريات والمفاهيم اللسانية التقليدية المنحصر اهتمامها في الجوانب الصوتية و التركيبة والدلالية اللغة، وترجع نشأة هذه النظرية التداولية إلى " الفيلسوف البريطاني جون أوستين John Austin (1911-1960) الذي وضع دعائم نظرية أفعال الكلام بكتاب الذي صدر في عام 1962, أي بعد وفاته بعامين" هذا الكتاب الذي كان عبارة عن " محاضرات قد ألقاها في جامعة هارفد سنة 1955 في كتاب سمي: كيف نفعل الأشياء بالكلمات, ثم

قام جون سيرل J.Seal وغيره من البراغماتين بتطوير هذه النظرية أثناء السبعينات والثمانيات"[21] حتى صارت "نواة مركزية في الكثير من الأعمال التداولية, و فحواه أن كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي وتأثيري, و فضلا عن ذلك يعد نشاطا ماديا نحويا يتوسل أفعالا قولية actes loutoires لتحقيق أغراض إنجازية"[22]

فالفعل الكلامي يجمع بين الانجاز والتأثير, هذا ما جسده التعقيب في سورة الرحمن يقرع الأذان الغافلة عن نعم الله الجليلة, جاء عقب كل قضية بأسلوب آسر يعرض المشاهد ترغيبا بالجنة وترهيبا من النار" فقوله: فبأي آلاء ربكما تكذبان كرر الآية إحدى وثلاثين مرة, ثمانية منها ذكرا عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله, وبدائع صنعه ومبدأ الخلق ومعادهم, ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها على أبواب جهنم, وحسن ذكر الآلاء عقبها, لأن في صرفها ودفعها نعما توازي النعم المذكورة, أو لأنها حلت لأعداء ودلك يعد أكبر النعماء"[23]، وعليه الفعل الكلامي غير المباشر فعل سياقي يوضح ملامحه السياق, فالخطاب بالمثنى في آية التعقيب يفسره السياق في مواضع من السورة, " والخطاب للثقلين الإنس والجن بدليل قوله سنفرغ لكم لأيها الثقلان روي أن هذه الآية لما قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم سكت أصحابه فقال جواب الجن خير من سكوتكم إني لما قرأتها على الجن قالوا: لا نكذب بشيء من آلاء ربنا وكرر هذه الآية تأكيد ومبالغة وقيل إن كل موضع منها يرجع إلى معنى الآية التي قبله فليس بتأكيد لأن التأكيد لا يزيد على ثلاث مرات"[24]

- **تخطيط سورة الرحمن بحسب تعقيباتها:**

ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣

أول تعقيب في السورة جاء بعد جملة من النعم الجليلة استفتحها المولى بنعمة القرآن هذه المنة الكبرى تستحق الشكر والحمد, قدمه المولى على خلق الإنسان لعظمته، فيه

نجاته وفلاحه في الدنيا والآخرة وقد سهل الله لعبده تلاوته وحفظه. وثاني نعمة هي خلق الإنسان وخصه بالبيان, فلولا هذه النعمة لما استطاع الإنسان التواصل والتفاهم والتعبير عن احتياجاته، وتتوالى النعم في هذا المقطع, فسخر الشمس والقمر بقدر دقيق بديع لا خلل فيه, وفيه منافع شتى للإنسان, فهذا" الوجود مرتبط ارتباط العبودية والعبادة بمصدره الأول, وخالقه المبدع, والنجم والشجر نموذجان منه ويدلان على اتجاهه كله وقد فسر بعضهم النجم بأنه النجم الذي في السماء كما فسره بعضهم بأنه النبات الذي لا يستوي على سوقه كالشجر, وسواء كان هذا أم كان ذاك فإن مدى الإشارة في النص واحد ينتهي إلى حقيقة اتجاه هذا الكون وارتباطه" [25]، ومن النعم الكونية خلق السماء ورفعها, ثم نعمة الحق بلا ظلم وخسران النعمة الموالية هي خلق الأرض وتسهيل الحياة عليها .

والتعقيب على هذه النعم يتضمن مقاصد مضمرة, أهمها نعم الله تستوجب الحمد لا الجحود هي ناطقة تحيط به وإن غفل عليها, فلولا هذه النعم لفقد الإنسان إنسانيته وعاش شقيا في الأرض, فالإنسان بلا قرآن لا قيمة له لأنه خسر الآخرة, وعلى سبيل التمثيل نختار نعمة البيان التي لو فقدها بني البشر كيف تصبح حياتهم؟ لكن اعتياد الإنسان على هذه النعم جعلته ينسى المنعم.

✓﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥﴾ والتعقيب هنا من منظور تداولي فعل كلام غير مباشر, يتضمن مقصد مضمر يتمثل في الدعوة للتدبر في الأصل لمعرفة مدى ضعفهما (الخطاب للإنس والجن) وبديع صنع الله في مخلوقاته, هذا التدبر المستوجب الحمد والشكر على نعمة الوجود.

✓﴿ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٨﴾ " يعني بالمشرقين: مشرق الشمس في الشتاء ومشرقها في الصيف, وقوله: ورب المغربين, يعني ورب مغرب الشمس في الشتاء ومغربها في الصيف"[26], والتعقيب يتضمن استنكارا للجن والإنس, كيف ينسيان نعمة المولى نعمة الشمس التي تعمل لصالحكما بتقدير دقيق؟

✓﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١ ﴾ " والبحران المشار إليهما هما البحر المالح والبحر العذب, ويشمل الأول البحار والمحيطات, ويشمل الثاني الأنهار. ومرج البحرين أرسلهما وتركهما يلتقيان, ولكنهما لا يبغيان, ولا يتجاوز كل منهما حده المقدر, ووظيفته المقسومة, وبينهما برزخ من طبيعتهما من صنع الله. وتقسيم الماء على هذا النحو في الكرة الأرضية لم يجئ مصادفة ولا جزافا. فهو مقدر تقديرا عجيبا. الماء الملح يغمر نحو ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية ويتصل بعضه ببعض؛ ويشغل اليابس الربع. وهذا القدر الواسع من الماء المالح هو اللازم بدقة لتطهير جو الأرض وحفظه دائما صالحا للحياة"[27], فجاء التعقيب لإبراز قدرة الله الفائقة في الكون (مرج البحرين) ويتضمن مقصدا مضمرا يتمثل في أن قدرة الله المعجزة في الكون دليل على الألوهيته التي تقتضي الإيمان والتوحيد.

✓﴿ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٣ ﴾ جاء التعقيب تذكيرا بنعمة من نعمه : اللؤلؤ والمرجان اللذان يستخرجان من البحار, وتتخذ منهما حلى باهظة الثمن, وهذا دليل على أن نعم الله فيها نفع ومتاع للبشر.

✓﴿ وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٢٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٥﴾ الجوار المنشئات هي "السفن الجارية في البحار, وقوله: كالأعلام, يقول: كالجبال, شبه السفن بالجبال, والعرب تسمى كل جبل طويل علما"[28] ويأتي التعقيب ليبرز نعمة أخرى, تستدعى الشكر, فهذه السفن التي تجري بأمر من الله لدليل على عظمة الخالق وعلى وحدانيته.

✓﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٨﴾ هذا التعقيب يتضمن مقصد مضمر يتجلى في توحيد الله, فهو الواحد خالق الكون, وكل من على الأرض مصيره الموت ويبقى الواحد الأحد.

✓﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٠﴾ " يسأله كل مخلوق من مخلوقاته بلسان المقال, أو بلسان الحال ما يطلبونه من خيري

الدنيا والآخرة أو من خيري إحداهما"[29] لأنه الواحد القادر على كل شيء, " فمن شؤونه أنه يحيي ويميت, يخلق ويرزق, يعز ويذل, يمرض ويشفي, يعطي ويمنع, يغفر ويعاقب, يرحم ويغضب, إلى نحو ذلك. ومن شؤونه إعطاء أهل السموات والأرض ما يطلبون منه على اختلاف حاجاتهم, وتباين أغراضهم"[30] جاء التعقيب متضمنا معنى التوبيخ لكل من يكفر بربه وينسى أن الله رب كل شيء, وكل من خلق بحاجة إليه وهو الملجأ الوحيد, وهذه نعمة تستحق الشكر.

✓﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٢﴾ تضمن التعقيب تهديدا ووعيدا لخلقه, وقت الحساب قد حان, والفوز برضا الله نعمة كبرى تستحق الحمد.

✓(يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ۝٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٤ ﴾" أن استطعتم أن تهربوا من الموت بالخروج من أقطار السموات والأرض فاهربوا, واخرجوا منها, فحيثما كنتم يدرككم الموت"[31] يتضمن التعقيب تذكير بالسلطان المطلق لله على جميع خلقه, لا أحد خارج سلطته.

✓﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٦ ﴾ " الشواظ لهيب النار والنحاس الدخان وقيل هو الصفر يذاب ويصب على رؤوسهم"[32] يتضمن التعقيب مقصد مضمر يتمثل في الترهيب من العذاب المهين الأليم لأهل النار, كما أنه يتضمن دعوة للحمد والشكر للنجاة من هذا العذاب.

✓فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٨ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٠ " وردة حمراء سائلة كالدهان"[33] يتضمن التعقيب معنى الترهيب الشديد من خلال عرض أهوال القيامة, وهذا التذكير في حد ذاته نعمة تستحق الشكر.

✓ ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ بِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ ﴾ "وهو مشهد عنيف ومع العنف الهوان, حيث تجمع الأقدام إلى الجباه, ثم يقذف المجرمون على هذه الهيئة على النار... فهل حين ذلك من تكذيب أو نكران"[34] يدل التعقيب على حالة الذل والهوان التي أعدها الله للمجرمين, ترغيبا في الجنة وترهيبا من النار, والتذكير نعمة.

✓ ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾ "هذه هي حاضرة معروضة –كما ترون- يطوفون بينها وبين حميم آن, متناه في الحرارة كأنه الطعام الناضج على النار, وهم يتراوحون بين جنهم وبين هذا السائل"[35] التعقيب يتضمن تأكيدا قويا لمصير من يكفر بربه, وتنبيها لعباده من الغفلة.

✓ , بعد الحديث عن أهوال القيامة والجزاء المهين لمجرمين, تصور السورة ما أعده الرحمن لعباده الصالحين من قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ حتى نهاية السورة ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ , يفصل كل نعمة عن الأخرى بالتعقيب في إيقاع صوتي جميل متناسق لتأكيد الحمد, فكل نعمة تستحق شكر المنعم, فيها ما ترتاح له النفس من عيون غزاز وفواكه متنوعة فكان الجزاء جنتين " لأهل المقام العلي, وجعل جنتين دونها لمن كان دون ذلك, فالجنتان المذكورتان أولا للسابقين, والجنتان المذكورتان ثانيا بعد ذلك لأصحاب اليمين حسبما ورد في الواقعة"[36]

الملاحظ للتعقيبات تكرارها بعد قضية واحدة؛ تخص نعيم الفائزين بالجنة, فتحدثت السورة عن أوصاف جنتين أدنى من الجنتين المذكورتين سابقا, فيهما متاع ونعيم من عيون تنضخ وفواكه وحور عين, وبعد كل نعمة يتكرر التعقيب تأكيدا على الحمد وشكر المنعم. وتختم السورة بتعقيب عام باسم الله, تسبيحا وإجلالا للرحمن الرحيم بعباده, وهو تعقيب عام يتناسق مع المقاصد العامة لسورة الآلاء, فنعم الرحمن معروضة في الكون وفي أنفسنا, نعم دنيوية وأخروية.

وفي الختام خلص البحث إلى نتيجة جوهرية تتمثل في فاعلية السياق القرآني في الوصول للمقاصد التعقيب المتكرر؛ فالتعقيب في سورة الرحمن تكرر في سياقات متعددة : سياق النعم الجليلة كنعمة القرآن, وسياق نعمه في الكون, سياق الترغيب في نعيم الجنة, وسياق الترهيب من النار ومن أهوال القيامة, فإن اشتركت التعقيبات المتكررة في الدعوة لحمد النعم, إلا أن كل تعقيب يتناسب , وينسجم انسجاما بديعا مع سياقه, فتتنوع مقاصده تبعا لذلك.

الهوامش:

[2] إلفي بولان, المقاربة التداولية, ترجمة: محمد تنفو, وليلى أحمياني, دار رؤية, القاهرة, 2018, ص: 6

[3] لطفي فكري محمد الجودى, جمالية الخطاب في النص القرآني, مؤسسة المختار القاهرة, ط1, 2004, ص: 97

[4] المهدي إبراهيم الغويل, السياق و أثره في المعنى دراسة أسلوبية, أكاديمية الفكر الجماهيري, ليبيا, ط 1, 2011. ص: 148

[5] المرجع نفسه والصفحة نفسها

[6] مصطفى مسلم, مباحث في التفسير الموضوعي, مطبعة المعارف, مصر, ط1, 2009,ص: 15

[7] مصطفى مسلم, مباحث في التفسير الموضوعي, ص : 16/15

[8] السيوطي, الإتقان في علوم القرآن, تحقيق: أحمد بن علي, ج 1, دار الحديث, القاهرة, دط, 2006, ص: 49

[9] ينظر , المرجع نفسه , ص:74/73

[10] مصطفى مسلم, مباحث في التفسير الموضوعي, ص: 44

[11] مصطفى مسلم, مباحث في التفسير الموضوعي, ص: 44

[12] السيوطي, الإتقان في علوم القرآن, ص: 48

[13] الزمخشري, الكشاف , تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود, مكتبة العبيكان, الرياض, ط1, 1998, ص: 313

[14] الزركشي, البرهان في علوم القرآن, ج2, تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم, دار التراث, القاهرة, ط3, 1984,ص:129

[15] الزركشي, البرهان في علوم القرآن, ج2, , ص: 157

[16] ابن منظور , لسان العرب, تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب, ومحمد الصادق العبيدي, دار إحياء التراث العربي, بيروت, ط3, 1999 ص:300/299

[17] محمد كريم الكواز, أسلوب التعقيب في القرآن الكريم, منشورات جامعة السابع من أبريل, ليبيا, ط1, 1425هـ, ص: 5

[18] ابن كثير تفسير القرآن العظيم, تعليق: محمد شمس الدين, دار الكتب العلمية, بيروت, ط1, 1998, ص: 454

[19] عبد الرحمن بن ناصر السعدي, تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان, تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحي, مؤسسة الرسالة, بيروت, ط1, 2002, ص: 828

[20] محمد جلال الدين القاسمي, محاسن التأويل: تحقيق: محمد باسل عيون السود, دار الكتب العلمية , بيروت,ط2, 2003 ,ص: 103

[23] محمد بن حمزة الكرماني, أسرار التكرار في القرآن الكريم المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان, تحقيق: عبد القادر أحمد عطا, دار الفضيلة, القاهرة, دت, ص: 231

[24] أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزى الكلبي, التسهيل لعلوم التنزيل, ج2, دار الكتب العلمية, لبنان, ط1, 1995, ص: 393

[25]سيد قطب, في ظلال القرآن, مجلد6,دار الشروق, القاهرة, ط1, 1982 ص: 3448

[26] الطبري, جامع البيان عن تأويل آي القرآن, تحقيق : بشار عواد معروف, وعصام فارس الحرستاني, مجلد 7, مؤسسة الرسالة سوريا, ط1, 1994,ص: 182

[27] سيد قطب, في ظلال القرآن, ص: 3452

[28] الطبري, جامع البيان عن تأويل آي القرآن ,ص: 184

[29] الشافعي, حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن, تحقيق: هاشم محمد علي بن حسين مهدي, المجلد 28,دار طوق النجاة, بيروت, ط1, 2001 , ص: 287

[30] المرجع نفسه, ص: 287

[31] الشافعي, حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن, ص: 292

[32] محمد بن أحمد بن جزي الكلبي, التسهيل لعلوم التنزيل, تحقيق: محمد سالم هاشم, دار الكتب العلمية, بيروت, ط1, 1995 ج2, ص:395

[33] سيد قطب, في ظلال القرآن, ص: 3456

[34] سيد قطب, في ظلال القرآن لمرجع نفسه, ص: 3457

[35]لمرجع نفسه, ص: 3457

[36] محمد بن أحمد بن جزي الكلبي, التسهيل لعلوم التنزيل, ص: 396

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊